ليس هذا هو الطريق
يا مسيو ديهامل !

للأســـتاذ عبد المنعم خلاف

فرنسا تحس وتعلم غاية العلم أنها فقدت كثيراً مما كان لها فى العالم العربى من أمكنة ومكانات ، وضيعت كثيراً من هيبتها وسمعتها لدى العرب ، وأن الثقة القديمة بالروح الفرنسى والثقافة الفرنسية أصابها كثير من الزلزلة والشك والهزال بعد تلك الصدمات التى طوحت بفرنسا وسحقتها فى معترك الأقوياء الذين أحاطوا بها من الشرق والغرب ، وبعد تلك المواقف غير الشريفة التى وقفتها فى سوريا ولبنان ولا تزال تقفها فى المغرب العربى الواقع تحت حكمها القاسى الجامد التغافل عن تيارات الحريات التى تحيط بالناس وتفتح أعينهم على عالم جديد وتكتسح العوائق والسدود

فرنسا تعلم ذلك وتقدر ما له من نتائج على مستقبلها بل على حاضرها وتريد أن تتخذ الحيطة للاحتفاظ بما بقى لها من تلك السمعة التداعية ولإنمائها إذا أمكن ذلك حتى تعود إلى المكانة السامية التى لم تكن تدانيها فيها حتى انجلترا ذات السيطرة الرسمية وذات العلاقات الوطيدة فى كثير من البلاد العربية . . لكن فرنسا من سوء حظها تخطىء فى التماس الوسائل إلى إعادة سمعتها ومكانتها وتصطنع تلك الأساليب السطحية التى أصبحت لا تتصل بصميم ضمير الشعب العربى ووعيه ولا ترضى طبيعته التى شبت عن الطوق ولم تعد تنطلى عليها تلك الدعايات التى تتصل بالترف الذهنى والعلاقات الكمالية وإرضاء بعض الطبقات الموشكة على الانقراض فى الحياة المصرية ،طبقات الصالونات والأندية التى تعيش بمعزل عن غمار الحياة اليومية المصرية والقومية العربية .

فإذا كانت فرنسا تريد أن تسلك السبيل القريبة إلى صداقة القومية العربية الناهضة التى أصبحت حقيقة سياسية ملموسة يحسب لها حساب فى الحاضر والمستقبل القريب والبعيد ، وإلى صداقة المصريين الحقيقيين بنوع خاص فعليها أن تلتمس لذلك وسائله العملية وتترك أمر الدعايات الكلامية والسفارات الأدبية التى تجند لها بعض مفكريها وأدبائها كمسيو جورج ديهامل الكاتب الشهير وتحملهم مشقة السفر وعناء الرحلة والحديث المكرر الممل عن فرنسا وخدماتها للثقافة ثم لا يكون من وراء ذلك طائل كبير ولا تبقى آثاره إلا ريثما ينقضى الحفل وتنفض سوامر الصالونات ولا يرسب من ذلك شىء فى أعماق المجتمع المصرى يصح أن يكون ذخيرة أو خميرة لبناء صداقة عربية فرنسية تخدم الحضارة وتكون عاملا من عوامل الاستقرار والتفاهم والتوازن فى البحر الأبيض المتوسط الذى يحتل العرب الجزء الأكبر منه . فعلى فرنسا إن كانت تريد عملا لا كلاماً أمورها تامة ترشدها إليها لأننا أعرف من فرنسا بما يفتح قلوبنا لها:

عليها أن تغير أولا نظرتها «الصليبية» بالنسبة للعرب والمسلمين التى حملتها على احتقار المغاربة والعرب عموماً والتنكيل بهم ، وأن تتحرر من ذلك التوجيه الحاقد الذى يستمد حقده من تلك الظلال والأشباح السوداء التى كان يثيرها المثيرون المتعصبون فى القرون الوسطى على العرب ويجعلونهم أمام الجماهير حلفاء الشيطان ويتخذونهم وسيلة لاثارة ذلك الشعور الذى كان يسمى « الحقد المقدس » !

ولتعلم فرنسا وخصوصاً مفكريها الذين تجندهم للدعاية ، أن نظر العالم لم يعد يطيق ذلك اللون السخيف الذى يبدو فى محاولات المستعمرين الفرنسيين فى شمال إفريقية لفتنة البربر والعرب المسلمين عن دينهم ، وضرب الحصار على أبنائهم ليحال بينهم وبين التعرف إلى قوميتهم ولغتهم التى صحبتهم منذ فجر التاريخ .

إن هذا منكر غليظ ورجعية عمياء لا تريد أن ترى طبائع الأشياء وتحاول فصل ما ربطته مشيئة الله التى نوعت الناس أجناساً ولغات لأمر عظيم على جانب من الخطر فى عالم الفكر وعالم العمل!

وعلى فرنسا أن ترفع يدها عن ضرب ذلك السور الحديدى حول تونس والجزائر ومراكش ، ذلك السور الذى لا يسمح لداخل غريب أن يدخل ولا لخارج أن يخرج ولا يسمح لعيون الناس أن يروا آثار حكمها السعيد ! فى حياة هؤلاء الأرقاء التعساء الذين ابتلوا بأن يعيشوا فى أوطانهم كأنها سجون ، الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود؛ فإن هذا أعجوبة الأعاجيب فى القرن العشرين ، حتى ولو كانت هذه البلاد مستقلة استقلالا تاماً ومحكومة ذلك الحكم بأيدى فريق من أبنائها لكان ذلك النوع من ضرب الحصار الحديدى عليها أسلوباً عجيباً فى هذا العصر!

وعلى فرنسا أن تقلع عن سياسة الإفقار والتجهيل التى تفرض بها البؤس والجهل على سكان هذه البلاد وتعزلهم بذلك عن حياة العالم وتفنيهم الفناء الأكبر بحرمانهم من وسائل العلم العصرى الذى يجعلهم أبناء حقيقيين لزمانهم يساهمون فى خدمة المعارف الإنسانية وفى إمداد شعلة الحضارة ومد نورها على ديارهم

وهم من أذكى الناس وأشدهم جلداً على التعلم والعمل . وإذا نسى التاريخ مخازي الأمم فلن ينسى لفرنسا أنها تتخذ سياسة تجهيل المغاربة عمداً وترسم لذلك الخطط وتستفتي مفكريها ليهدوا فريقاً من الناس إلى طريق الجهالة العمياء ، ويصرفوهم عن طريق المعرفة البيضاء ! إن هذا أكبر عار يلحق بفرنسا ، وإنه لأكبر «ارتداد» عن رسالة العلم ، وإنه لجدير أن يخزي وجهها يوم يستعرض عملها أمام هيئة الأمم المتحدة وينشر على رءوس الأشهاد في يوم آت قريب

وإنني لا أذكر لفرنسا هذا الموقف المخزي إلا أشعر أن سخط الإنسانية كلها لا القومية العربية وحدها يثير في دمي القشعريرة والاشمئزاز ، وعلى فرنسا أن تسير مع الزمن في علاقاتها السياسية بشمال إفريقية وأن تتطور كما يتطور غيرها في ارتباطاتها بالشعوب العربية التي بينها وبينها مصالح ، وأن تعلم أن الفجر الدولي قد سطع على العالم وكشف أوكار الرجعية والاستبداد ولن يخفى على العيون ما تفعله فرنسا في إفريقية مهما خيل إليها أنها ستصل إلى غاياتها الظالمة في غفلة عن الرقباء ، وأن تقلع عن خرافة سلخ أي جزء من المغرب من جسم العروبة لضمه إليها فإن ذلك لن يكون لها يوماً ما ، لأنه يناقض طبيعة التكوين وحقائق السياسة العالمية الراهنة

فيا مسيو ديهامل إن كان عليك لوطنك واجب فعليك للانسانية مثله والمفكر المخلص إنسان تملكه الإنسانية كما تملكه وثنية الوطن

فإن كنت تريد أن تعيد مجد فرنسا لامعاً واسمها عالياً كما كان فسخر قلمك للدفاع عن الحقائق الانسانية العليا الأبدية التي تحتل الحرية فيها مكان الصدارة واجعل فرنسا أم الحرية في زعمكم لا تتنكس لواء الحرية ولا تمرغه في الوحل والدم في الجزائر ومراكش وتونس .

وإذا كانت فرنسا هي حياتك — كما حاضرت المصريين — فاجعل حياتك هذه صورة مما ينشد فكرك الحر وأدبك الحار وقلبك العامر لا كما ينشد الفرنسيون الرجعيون الحاقدون والسماسرة والدجالون والجاهلون اللاعبون بالشعوب الذين لا يدركون سير الحياة بالأحياء ولا يعرفون منطق هذا العصر الذي يعيشون فيه بثياب المتحضرين وجلود الآدميين بينما قلوبهم هي قلوب القردة ووحوش الغاب ..

وإنها لرسالة لك في فرنسا إذا أردت : أن تعود إليها رسول آلامنا من أجل بني قومنا المتخنين بجراح بني قومك ! وقد أرسلتك إلينا «السياسة» التي لا قلب لها لشأن من شئونها الخادعة ، فارفض أيها الكاتب أن تخدع . وعد إليها رسول الآلام الإنسانية التي عانت فرنسا مرارتها وحرارتها فترات مظلمة من الزمان البعيد قبل الثورة التي حولت مرارتها حلاوة وحرارتها ندى ، وفترة مظلمة من الزمان القريب الذي لا يزال وقع الحذاء الألماني فيه على أرض فرنسا يصخ آذان أحرارها !

يا مسيو ديهامل ! أيها الأديب الكبير ! إننا هنا في الشرق ندعو أن يثور المفكرون على الواقع السيء الذي يسيطر عليه العوام وأن تتحرر الرءوس من سلطان الأقدام ، والجامعات من منطق الشوارع .. لأننا نرى في هذه المدنية الحالية مدنية الحرية والعلم نبوة شيوعية من لم يؤمن بها فقد صبأ عن الإنسانية ، ومن سخرها بغير أهلية لها فقد ألحد فيها ، مع أننا لا نزال في دور فتح العيون على فجرها ولم نأخذ منها ما أخذتم معشر الغربيين ، وليست منسوبة إلينا ، بل تنسبونها أنتم إليكم . فلماذا لا تدافعون عن حرمتها وعن حقائقها دفاع أنبياء إسرائيل الشرقيين القدماء عن حقائق الإيمان والنبوات الأولى ؟ لماذا لا تذوقونها بأرواحكم وقلوبكم بدل ذواقها بجيوبكم وخزائنكم ؟! لماذا تجعلون رسلها إلى بلاد المتخلفين هم من السماسرة والمتنطرسين والحاقدين والمتمالين؟

إن اللوم في ذلك واقع على أرباب الفكر الذين يرون هذا ولا ينكرونه ، ويرضون لأقلامهم وألسنتهم أن تسخر وراء القطيع الذي لم يدرك أمانة الفكر وحراسة شعلة الحضارة في الروح قبل الجسد

وما أظنك ترضى لو علمت أن أربعين ألفاً من العرب الجزائريين قتلوا في «سطيف» بالجزائر ، لأنهم طالبوا بحريتهم في أيام الاحتفالات بعيد النصر سنة ١٩٤٥ ؟

إن صراخ دم هؤلاء الضحايا يجب أن يؤرق نومك ويعد قلمك بمداد من نار لتثأر من قتلة هؤلاء الأحرار الذين طالبوا بالحرية التي يمجدها قلمك وأقلام إخوانك وإلا كنت غير مخلص لرسالة الفكر

وما أظنك ترضى أن يعيش خمسة وعشرون مليوناً من النفوس محرومين من عصارة فكرك وفكر أمثالك ومعارف الدنيا لأجل أن يكونوا سوائم بلهاء تحرث أرضها وتحلب ضرعها لتستولي عليه عصابات المستعمرين الرأسماليين في فرنسا ؟

واعذرنا إذا كنا نتهكم ونسخر مما تقول ويقول أمثالك عن فرنسا وروحها الحر وميراث ثقافتها ، ما دمنا نرى أن هذه كلها بضاعة تستهلك في فرنسا ولا تصدر إلى الخارج ..

هذه كلمات صادقة أردت أن تخلص إليك من بين مجاملات الصالونات ، وأنا أعلم أن واجب مثلك أن يحرص على سماع الصدق الصريح .

عبد المنعم خلوف